

دراسة (الشخصية) في العمل الروائي
مدخل تعليمي

الدكتور محروس محمود القللي

دراسة (الشخصية) في العمل الروائي مدخل تعليمي

أولاً - ما المقصود ب(الشخصية) في العمل الروائي؟ (المفهوم)

نصح الطالب دائماً بالعودة إلى المعاجم الأصلية المتخصصة في المجال الذي يدرسه، ولذلك ألقت نظره إلى أحد أهم المعاجم المعاصرة، بل آخرها، الذي اهتم بالسرديات ومصطلحاتها، مؤصلاً، وضارباً المثل من القص العربي ما أمكن، وأعني بذلك (معجم السرديات) الذي قام على إعداده مجموعة من الباحثين في السرد العربي بإشراف الباحث الأستاذ الجامعي التونسي (محمد القاضي)، وصدر عام 2010 عن دار محمد علي الحامي بتونس.

وقد عرّف هذا المعجم (الشخصية) بما يأتي:

"تمثل الشخصية مع الحدث عمود الحكاية الفقري. لذلك تدرس في إطار الحكاية. إلا أن هذا الدرس قد تعثر طويلاً ولم يحقق نقلة نوعية إلا لما أعادت السرديات النظر في طابع الشخصية النفسي حيث حصرها النقد التاريخي وعاملها على أنها معطى جاهز مثلما فعل "فورستر" وقد نبهت السرديات - مستندة إلى المقاربات البنيوية والسيميائية، لفك الارتباط بين الشخص والشخصية ولاعتبار الشخصية، في القصص التخيلي، كائناً ورقياً متخيلاً ولكونها مجرد دور أو فاعل.

واختلفت النظرة إلى الشخصية باختلاف مذاهب الكتابة القصصية. فقد كانت الرواية الواقعية هي منطلق التصور النفسي للشخصية. وكانت

"الخرافة" - كما حللها "فلاديمير بروب" - منطلقا للتصور الذي يرى في الشخصية دورا. وكان القصص الأسطوري منها استقى منه "غريماش" تصوره السينيمائي فاعلا.

وقد لاحظ "بروب" وهو يدرس الحكاية الشعبية الروسية، أن ثمة دوائر عمل سبعا لا تخرج عنها مختلف شخصيات الخرافة. وهذه الدوائر التي تمثل أدوارا هي المتعدي والواهب ومساعد الأميرة وأبيها المرسل والبطل والبطل الزائف. أما "غريماش" فقد أفاد من الجرد الذي أعده "بروب" وذلك الذي أعده "سوريو" للوظائف المسرحية أو الأدوار ، ليقدم "فواعله" وأقطابه الفاعلية الأساسية الستة. وهي الموزعة أزواجاً: الذات والموضوع، وتربطهما علاقة رغبة. والرسول والمرسل إليه، وتربطهما غ=علاقة تواصل. والمساعد والمعارض وتصلهما علاقة صراع.

وعمل "فيليب هامون" على بلورة تصور سيميائي دلالي للشخصية عندما تحدث عما أسماه "أثر الشخصية" (Effet personnage) ، واعتبر أن ما يهدُّ تُحدُّ هو بطاقتها الدلالية. وهي ليست معطى جاهزا بل هي إنشاء يتم تدريجيا على امتداد القراءة. ونبه "هامون" لكون الشخصية ليست حصرا ذات مفهوم أدبي ولا شكل إنساني. فالأواني في المطبخ، على سبيل المثال، قد تكون رواية ما شخصيات.

وتوافر الشخصية في النص السردي رهين تضافر أدوار ثلاثة هي الدور الفاعلي. وفيه يُنظر في انتماء الشخصية إلى أحد الفواعل الستة، والدور التمثيلي وفيه يُرى من ينهض بهذا الدور الفاعلي أو ذاك بقطع النظر عن

الشكل الإنساني أو عن عدد الممثلين الفعلي، والدور الغرضي وفيه يُحدد الدور الاجتماعي الثقافي النفسي للشخصية.

وبهذا تكون الشخصية نظاما ينشئه النص تدريجيا. لكنها لا تعدم في بداية ظهورها هوية عامة. فهي، في البداية، شكل أو بنية عامة. وكلما أضيف إليها خصائص أضحت معقدة غنية مرغبة من دون أن تفقد هويتها الأصلية. والمتلقي، إذ يتلقى كما غزيرا من خصائص الشخصية الدلالية، ينتقي ما يراه به أصلح. فينسى بعضها وقد يضيف غيرها." (نقلا عن: معجم السرديات، 270، 271)

ثانيا- كيف ندرس الشخصية في الرواية؟

مما سبق من تعريف للشخصية في الرواية، وبخاصة فيما يتعلق بأدوارها الفاعلة في النص يمكن تقديم العرض الآتي لتطبيقه على قراءة الأعمال السردية، وبخاصة الرواية. وهو عرض لا بد أن يقدمه الطالب بطريقة متكاملة من خلال النظر في الكيفية التي يقدم بها الكاتب شخصيته دون أن يفرض من يقوم بقراءة النص رأيه في توجيه الشخصية إيديولوجيا لغرض معين (سياسي أو مجتمعي أو ديني).

(1) ما المقصود بالشخصية؟

- الشخصية، لا شيء قبل أن نقرأ النص، فلا توجد شخصية تسكن مخيلة القارئ قبل الولوج في قراءة النص. ولكن:

- كلما قرأنا النص، تولّد لدينا انطباع بنمو الشخصية وتضخم موقعها. وهذا ما يُطلقُ عليه (تأثير الشخصية). « l'effet-personnage »

(2) كيف نقوم برسم صورة للشخصية؟ (portrait)

على الطالب حين يُقدم على قراءة العمل السردى بغية تحليله أن يقف على رسم صورة الشخصية أو بمعنى آخر أن يجتهد في رسم صورة مطابقة لما أرادته الكاتب (أقصد كاتب النص الروائي مثلاً)، ويكون ذلك من خلال العناصر الآتية:

- التمييز بين صورة (بورتريه) فيزيائية وأخرى نفسية. وهنا يقف الطالب على تقديم هاتين الصورتين بأمانة شديدة، بحيث ينحصر دوره -فيما بعد- في مرحلة (التفسير)، أي المرحلة الوظيفية للصورتين، بحيث يتساءل في كل مرة يقدم فيها الكاتب شكلاً معيناً للبطل عن الغرض من هذه الأوصاف. وينحصر دور الدارس في المرحلة الأولى في:

- إمكانية عزل فقرات وصفية تخص هذه الشخصية أو تلك (التوصيف المباشر للشخصية) *caractérisation*.

- عدم الاكتفاء بوصف الشخصية فقط، بل يجب مراعاة:

○ ما تفعله الشخصية.

○ ما تقوله، وما تفكر فيه. (وهو ما يُطلق عليه التوصيف غير

المباشر للشخصية)

(3) كيف تتطور النظرة إلى الشخصية؟

- يقوم الطالب بدراسة حضور الشخصية في الرواية من خلال العناصر الآتية:

- في أي لحظة تتدخل الشخصية؟
- ما الوقت الذي تستغرقه الشخصية في الحضور؟
- هل تبدو أهمية الشخصية متناسبة مع عدد الصفحات التي خصصت لها؟

- يدرس المخطط السردى **le schéma narratif** الخاص بالشخصية من خلال:

- موقفها المبدئي.
- الحدث الذي تواجهه الشخصية ويغير مسارها **L'événement perturbateur**.
- موقفها وقراراتها **.résolution**.
- الموقف النهائي للشخصية.

- ما علاقة الشخصية بالشخصيات الأخرى؟

- أوازن بين أهمية هذه الشخصية والشخصيات الأخرى (شخصية رئيسية، ثانوية...).
- مع أي شخصية أخرى تعمل الشخصية قيد الدراسة؟ (ما يطلق عليه: فكرة ثنائيات الشخصيات **couple de personnages**)
- أدرس المخطط الفعلي للحكاية.

- من المساعدون له (من يساعدون هذه الشخصية)؟
○ من يعارضون هذه الشخصية (أعداؤه)؟

*** **

وفي ضوء هذا المدخل الثلاثي الذي يشرح⁽¹⁾ compréhension وجود الشخصية في العمل الروائي نقوم بتقديم عرض تطبيقي تعليمي في مجمله، دون أن نغفل أبدا مفهوم الشخصية الذي عرض في (أولا) من هذه الدراسة، وسيكون ذلك من خلال الدراسة التطبيقية الآتية التي نقدم فيها أنموذجا بسيطا لطريقة درس الشخصية في النص الروائي:

ثالثا- دراسة: (شخصية البطل في رواية "الثائر الأحمر" لعلي أحمد باكثير)⁽²⁾.

⁽¹⁾ نشير هنا إلى أهمية المصطلح المشار إليه: (الشرح - compréhension) الذي عني الإشارة المباشرة إلى العناصر البنوية أو اللغوية التي تساعد القارئ على فهم مكونات النص من داخله. بينما يشير المصطلح الثاني: (التفسير - explication) إلى الاستعانة بعامل آخر على فهم النص الأدبي، مثل الاستعانة بأدوات علم الاجتماع، أو علم النفس، أو التاريخ... الخ

⁽²⁾ تعتمد هذه الدراسة على رواية (الثائر الأحمر) لعلي أحمد باكثير، القاهرة: مكتبة مصر، 1985.
- علي أحمد باكثير (1910 - 1969م) من حضر موت في جنوب اليمن، ولد بإندونيسيا، وأقام فترة في الحجاز، ثم انتقل إلى مصر حيث تخرج في كلية الآداب عام 1939، وكان له نشاط أدبي كبير، ويعد من بناء المسرح الشعري والنثري في مصر، له أربع مسرحيات شعرية، منها: همام أو في بلاد الأحقاف، وإخنتون ونفرتيتي، وله شعر مخطوط نشر بعضه في الصحف والمجلات، فضلا عن العديد من الروايات والمسرحيات النثرية، والملحمة الإسلامية الكبرى: عمر بن الخطاب (انظر شعراء الدعوة ج9، ص7).

تقدم رواية (الثائر الأحمر) أنموذجاً للروايات القليلة التي تناقش أفكاراً معاصرة أقلقت فكر الخواص والعوام على السواء. وفي الوقت ذاته، فهي تمثل أهم أعمال (علي أحمد باكثير) التي أثارت المتلقي الناقد الذي التفت إلى أفكارها التي تعالجها رواية لأول مرة في تاريخ الكتابات الأدبية العربية الحديثة.

وتعالج الرواية (ثورة القرامطة) التي ترافقت - إلى حد ما - قياماً وسقوطاً، مع (ثورة الزنج) في دولة الخلافة العباسية على مدى عقود عديدة في القرنين الثالث والرابع الهجريين. وتحكي قصة حمدان قرمط وابن عمه عبدان عندما تحولوا من شخصين من عامة الناس الفقراء إلى ثائرين يقودان الجموع ضد دولة الخلافة سعيًا لما سمي (بالعدل الشامل)، وانتهت ثورتهم بالفشل بعد الإخفاق في تحقيق العدل، وانحيار دولتهما التي أقيمت جنوب العراق.

وموضوع الرواية يعد موازياً أو معادلاً موضوعياً للأفكار (الاشتراكية) وما حملته من أفكار إلى المثقف العربي من ناحية، وما لها من أثر في الإنسان العادي، دون أن يدري بما تفرض من أطر الوضع الثقافي أو الاقتصادي من حوله. وقد قدّم علي أحمد باكثير في هذه الرواية إطاراً من النبوءات التي نبهت القارئ المثقف إلى نتائج ما يسمى بالفكر الاشتراكي. وننظر فيما يأتي إلى الطريقة التي عالج بها باكثير الشخصيات لنرى كيف جسد فشل الإيديولوجية الاشتراكية ومن حملها إلى العالم المسلم، وكيف جسد استحالة تطبيقها في البلدان الإسلامية لما تحمله من قيم لإنبات نوع من العدل الشامل يتعدى حدود الشريعة الإسلامية، في إشارات واضحة من علي أحمد باكثير إلى صعوبة إقامة عدل في بلدان الإسلام دون الاتكاء إلى فكرة الإسلام نفسها تلك الفكرة

التي تجمع بين العدل والحفاظ على الآداب الإنسانية الفطرية التي يحفظها الدين:

1- الصورة الفيزيائية (الجسمية) للبطل وتفسير وصف المؤلف لها:

يقدم الراوي شخصية البطل (حمدان) وهو يعمل في مزرعة لأحد كبار الملاك من الإقطاعيين (ابن الحطيم) الشاب الثري الذي ورث عن أبيه إقطاعات في مدينة الكوفة العراقية. ويساعد (حمدان) في حرث الأرض أختاه (عالية) و(راجية).

ونلاحظ الراوي وهو يصف شخصية البطل (حمدان) وصفا خارجيا بقوله:

"كَانَ (حمدان) في نحو الخامسة والثلاثين من عمره قوي البنية جلدا على العمل، بشوشا لا تكاد الابتسامة تفارق شفثيه حتى في أحلك الساعات وأهول الخطوب" (الثائر الأحمر، 8)

وكذلك يصفه بالكثير في موضع القوة في معركة بين رجالات طرقي السلطة (ابن الحطيم) الذي يعمل لديه البطل، و(المهيصم) ذاك الثري الذي ينافس (ابن الحطيم) في تضخيم ثروته من عرق الأكارين:

"فاضطر حمدان وعبدان أن يقاتلاهم دفاعا عن أنفسهما حتى تمكنا من الهرب، واتفق أن أصاب حمدان أحدهم بضربة في فمه سقطت لها أسنانه فكان أن حكم عليه بدفع غرامة ثقيلة ظل يشكو عقابيلها عاما كاملا". (الثائر الأحمر، 8)

2- الصورة النفسية التي رسمها المؤلف للبطل:

يقدم علي أحمد باكثير بطله متمثلاً في شخصية فلاح يتمتع بحساسية عالية ومشاعر نفسية مرهفة. وفي غير موضع من الرواية يعالج المؤلف نفسية (حمدان قرمط)، فهو: "يعمل في حقله، وإحدى رجله على سنة المحراث والأخرى يرفعها عن الأرض حيناً، ويلمس بها الأرض حيناً، وقد أمسك بخطام الثور الذي يسير أمامه يجر خطوه جراً ثقيلاً، و السوط في يمينه ينكت به مترفقاً على ظهر صاحبه الأعجم كلما توقف عن المسير أو ثاقل فيه، وكأن لسان حاله يقول: "أيها الثور الحبيب، كلانا محكوم عليه أن، يعيش هذا الشقاء، وهذا السوط في يميني ويعز عليّ أن يقع على ظهرك، فلا تحوجني إلى استعماله". (الثائر الأحمر، 4)

وعند قراءة هذه الفقرة التي تعلن عن افتتاحية الرواية، بل الصفحة الأولى فيها، يلتفت النظر إلى بعض العبارات التي ترسم صورة (بورتريه) لشخصية هذا الفلاح الذي يحس بشقائه، إلى درجة يجعل فيها شقائه و شقاء هذا الثور سواء.

3- ما تفكر فيه الشخصية (التوصيف غير المباشر)

يكشف عن هذا الجانب من شخصية البطل حمدان إمكاناته العقلية على الرغم من كونه فلاحاً يقدمه المؤلف في مدخل الرواية مستسلماً...وفي لحظة فارقة يبدأ البطل في تشكيل نفسه بإرادته، ليكون وعياً مخالفاً للاستسلام، فترغب نفسه في الثورة والتمرد لينضم إلى فئة (العيارين). ومن ثم يخلق لنفسه وعياً يمكننا يرى به مستقبله ومستقبل البلاد.

يسيطر على الرواية بدءاً من منتصف (السفر الأول) توجه فكري يريد المؤلف مناقشته من خلال الشخصيات، فتنظيم الأحداث المروية (الحبكة) في الرواية يقوم على مناقشة إيديولوجية حديثة نفذت إلى أقطار عربية عدة في منتصف القرن العشرين، يعود بها الأديب إلى القرن السابع الهجري.

ويلفت النظر في البناء الروائي -من وجهة نظري- أن المؤلف أورد بطلا لا يتمتع بأي معرفة سابقة تمكنه -على الأقل- من تمثل هذه الأفكار المتطورة التي تبعد من حيث المبدأ العام عن فكرة الدين في أساسها، متجهة إلى أفكار وضعية تدعو إلى القضاء على الطبقة وتوزيع الثروات (العدل الشامل). ولكن الإشارة الذكية التي تجعل فكرة المعرفة المحدودة للبطل مقبولة، هي أن باكثير جعل من يطلبون هذه المبادئ من أهل القرن السابع الهجري، وجعلهم من طائفة (العيارين) تدفعهم عاطفة الانتقام من الغنيّ الظالم، وتوزيع ثرواته. ويبدو أن العوام والفقراء ينجذبون تلقائياً إلى هذه الفكرة. ويتضح ذلك من الحوار الطويل الذي جرى بين إمام المسجد (وهو عيار متخف، بل من العيارين السبعة الذين يحق لهم الاتصال المباشر برئيس العيارين) والبطل حمدان، إلى أن يقتنع هذا الأخير بالانضمام إلى هذه الطائفة التي تدعو إلى العدالة المطلقة، ولكن من وجهة نظره هذه الفئة، أي من أفكارها الموضوعية التي تذهب بها بعيداً عن الدين، تلك التي تدعو إلى أخذ الحق عبر الوسائل الباطلة:

- الشيخ⁽³⁾: فما تقول في العيارين؟

- حمدان: قوم يقسون على الأغنياء ويرحمون الفقراء.

(3) الشخصية: الشيخ بهلول السمرقندي.

- الشيخ: أتقول هذا مجاملة؟
- حمدان: لا والله لقد كنت حسن الرأي فيهم، ولا أدري إلا أن الله سلطهم على الأغنياء عقابا لهم على منعهم الزكاة... وهضم حقوق أمثالي.
- ...
- قال عبد الرؤوف: فليس بينه وبين أن يصبح عيارا خطوة واحدة.
- قال الشيخ: فما يمنعك يا حمدان من أن تكون عيارا، فإني لأراك تصلح أن تكون معنا؟
- قال حمدان: لكني لا تطوع لي نفسي أن أسطو على أموال غيري.
- فقال الشيخ: ويحك يا حمدان إنا نسطو على أموال غيرنا، ولكننا لا نسطو أبدا على حقوقهم.
- رأيت قصور ابن الحطيم وما تحوي من أموال متاع؟
- فاعلم أن ما فيه ليس كله حقا له، فإن فيه حقوق الفقراء والمساكين في الزكاة والصدقة، وإن فيه حقاك يا حمدان وحقوق أمثالك من الأكارين الذي يستثمرون له أرضه... ولكن ليس حقه فيما يقول الله.
- قال حمدان: وليس حق العيارين كذلك، فكيف يحل لهم أن يأخذوه؟
- ما تقول في القوم المحتسبين؟
- رجال تطوعوا لله! ألا يروا معروفا إلا أمروا به، ولا منكرا إلا نھوا عنه.
- الشيخ: وكذلك العياريون، بيد أن العيار يعتمد في ذلك على الفعل إذا اعتمد المحتسب على القول.

- حمدان: ولكن المحتسبين لا يأخذون شيئا لأنفسهم.
- الشيخ: فذلك شأنهم، لا ضير عليهم أن يحتسبوا عند الله...
فنحن معشر العيارين كهؤلاء (العاملين في الصدقات)، نأخذ حقنا فيما نغنمه من أموال الأغنياء بقوتنا واقتدارنا، ثم نفق ما يفضل عن حاجتنا على المستحقين من الفقراء والمساكين وذوي القربى واليتامى وابن السبيل،
- حمدان: ولكن العيارين فيما أعلم لا يأخذون نصيبهم من ذلك المال بالمعروف، بل يسرفون في الإنفاق...
الشيخ: حسابهم في ذلك على الله، إن شاء عاقبهم وإن شاء غفر...
حمدان: إني إن اقتنعت بحجة الشيخ فيما قال فقد بقي في نفسي شيء من الانتساب إلى قوم يتخطفون نساء الناس. (الثائر الأحمر: 73-79 بتصرف)
- ومن ثم يقنعه الشيخ بأن العيارين لا يختطفون الناس، وأن (ثمامة) ما هو إلا غلام للعيارين انشق عنهم، وهم يبحثون عنهم ليقتلوه لقاء وشايته بهم. وهذا سبيل حمدان قرمط إلى الانتساب إلى العيارين بدافع الفوز بمساعدتهم في الوصول إلى أخته التي ساعد (ثمامة) على سرقتها ونقلها إلى قصر السيد (ابن الحطيم) لتصبح من بين محظياته. وكان حمدان قد رفض (ثمامة) زوجا لأخته (راجية)، فخطف (ثمامة) أختها (عالية).
- ويضع (باكثير) هذه النقلة الفكرية غير المباشرة التي تدعو إلى طبيعة فريدة وشاذة من طبائع فرض العدل البشري بين يدي القارئ ليبرهن عن نقلة

فكرية مفاجئة تسود ذهن البطل. وتسفر عناصر الحوار السابق عن وصول البطل إلى قناعات مؤقتة تفرضها طبيعة هذه المرحلة الأولى التي يتعلق فيها بقوة تلك الطائفة التي تستتر بالدين في بعض من جوانبها، وفي الوقت ذاته تدمن على بعض أنواع الخمر بحجة أنها لا تذهب العقل، مثل شخصية هذا الشيخ الذي يستتر في دور إمام المسجد، ولكنه يدمن على الخمر، ويرى رأيه الخاص في تحقيق العدالة المطلقة بعيدا عن رأي الدين.

فلماذا يقبل هذا البطل ذو الفطرة المعتدلة هذا التناقض في شخصية الشيخ، رغم طرحه عددا من التساؤلات التي وجدت إجابات فلسفية تدغدغ كيانه وتغازل فطرته فتجذبها نحو هاوية يضع قانونها فئة خارجة بحجة فساد كبار الملاك، وفساد الحكومة التي تساعد هذه الفئة على فرض سيطرتها على الفقراء.

يتضح فيما يقرب من النصف الأول من (السفر الأول)⁴ تآزر العاملين النفسي والجسمي في تكوين شخصية البطل (حمدان) على الصورة التي يقدمها علي أحمد باكثير يريد من خلالها تهيئة المتلقي (القارئ والناقد) لتصور إمكانية البطل من خلال المكونين الجسمي والنفسي لتحمل مسؤولية تحوله من شخص عادي إلى شخصية صاحبة قضية (بصرف النظر عن إيجابية القضية أو سلبيتها من وجهة نظر القارئ أو الناقد). فقضية البطل بدأت خاصة، يرجو من ورائها

(4) نشير إلى أن باكثير بنى تقسيما رباعيا لروايته أطلق على كل قسم منها كلمة (سفر)

البحث عن أخته (عالية) التي اختطفها فئة من العيارين لصالح المالك، ثم تحولت إلى قضية عامة تدعو إلى العدل من خلال البحث بطريقة اشتراكية، أي من خلال إسقاطها على الجو العام في العصر العباسي. (يراجع: النائر الأحمر، 44-4)

4- تطور شخصية البطل (حمدان) في الرواية:

لا شك في أن شخصية البطل حمدان هي الشخصية الأساسية في الرواية، ولذلك يتبين حضورها من الوهلة الأولى التي نبدأ فيها بالقراءة. وبناء على ذلك يجب الوقوف على المراحل المحورية لظهورها:

4-1. أهمية الشخصية (من وجهة نظر المؤلف)

تبدو أهمية الشخصية في بلورتها لفكرة المؤلف التي يريد أن يعالج من خلالها إمكانية تطبيق الإيديولوجيا الاشتراكية في توجيه مصائر الناس في القرن العشرين. وقد تحركت الشخصيات كلها (الإقطاعيون والعمال والبرجوازيون) لتجسيد هذه الأفكار.

وتتجسد أهمية البطل (حمدان) منذ اللحظة الأولى التي يظهر فيها عاملاً بسيطاً يعمل نظير طعامه لدى أحد الإقطاعيين الظالمين. ولا شك في أن ذلك يعد معادلاً موضوعياً لحالة مماثلة يرويها تاريخ مصر الحديث، بل الشرق الحديث، وبخاصة قبل وإبان أحداث 1952 في مصر، حيث الصورة المظلمة التي سبقت هذا التاريخ، بل ما أصاب ولادة الإصلاح بعد ذلك من عمليات إجهاض متوالية حقها الظلم والإنكار للمواطن المصري. ويأخذ علي أحمد

باكثير مثالا واحدا فقط من تسلط بعض الأفكار، بل فَرَضها على المواطن، ويعود به إلى العصر العباسي وقت ثورة الزنج في العصر العباسي. وهكذا كان من الطبيعي أن تستغرق الشخصية مساحة واسعة من الرواية تعبر عن مراحل تطورها.

4-2. المخطط السردى لشخصية البطل:

يتمثل الموقف الأوّلي للبطل - كما يقدمه المؤلف - في الظهور السلبي الخاضع على الرغم من الصفات الذاتية التي عرضها المؤلف، والتي ستؤهلها فيما بعد لتبني هذه الأفكار التي ساقها إليه الشيخ. يعمل البطل هو وشقيقتها، دون احتجاج لفظي على هذا الإقطاعي الذي يجني ثمرات الظلم. وتواجه الشخصية - بعد ذلك - حدثا يغير مسارها الطبيعي الذي وُلدت ونشأت فيه، فقد حُطفت أخته الكبرى المُقدمة على الزواج بعد أيام قلائل، مما أثار في نفسه ثورة عارمة انضم على أثرها إلى طائفة (العيارين). وتبنى أحداث الرواية على هذا الحدث.

ويتخذ البطل قراره المصيري بالانضمام إلى طائفة (العيارين) الذين يسطون على الأثرياء، ويتسترون في أعمال مختلفة (إمام المسجد الشيخ بهلول السمرقندي - التاجر عبد الرؤوف): "ويل للمال! ويل للأغنياء! خذوني معكم. أنا منكم! أنا منكم!" (الثائر الأحمر، 79)

4-3. علاقة الشخصية بالشخصيات الأخرى:

تتشعب علاقة البطل بالشخصيات الأخرى في الرواية. ويدور هذا التعدد في فلك الأفكار التي تحمها الرواية وتعبر عنها، وهذا ما نركز عليه في المدخل الآتي:

4-3-3. علاقة الخديعة الفكرية:

لا غرو أن تكون أصعب العلاقات التي خانت توقعات البطل في نهاية الرواية، هي علاقته بشخصية ابن عمه (عبدان). فقد كان عبدان خطيباً لعالية أخت حمدان، وقبل الزواج بيومين يخطفها (ثمامة):

- فعقب خطف عالية، يبدو (عبدان) مهموماً عليلاً (الثائر الأحمر، 46 و 84)،

- حمدان يخبر عبدان أنه أصبح من العيارين (الثائر الأحمر، 83)

- ينتعش عبدان بعد أن هجم حمدان على قافلة لابن الحطيم لاسترداد أخته (عالية)، ولكنه سرعان ما ينقلب الحال، بعد معرفته أن ابن الحطيم قد اعتدى عليها. (الثائر الأحمر، 88، 89)

- عبدان ينشر فضائح ابن الحطيم على الملأ. (الثائر الأحمر، 90)

- تحدث نقلة في حياة (عبدان) بعد أن قتل هو وحمدان رجال ابن الحطيم، فيهرب في ثياب طالب علم إلى مدينة (واسط) فيلتقي رجلاً يبدأ في بث فكرة (العدالة الشاملة) في قلبه، ليتحول إلى فقيه بارز فيها. وتتمثل فكرة العدالة في شيوع الأملاك والنساء بين الرجال، متى رضيت المرأة ولم تُقهر على فعل شيء. وهذه فكرة الشيوعية من الناحية الأخلاقية التي تلغي فيها فكرة الدين، ومن أراد

فليُنظر إلى البلاد التي نُهجت هذا النهج في العالم (روسيا وفرنسا...) والعدوى التي مرت منها إلى بقاع العالم وبعض البلدان العربية. فتظهر شخصية زميله في الدراسة (جعفر بن أحمد الكرمانى) الأهوازى، الذي أكرم عبدان وجعله يقيم في بيته لِمَا وجد فيه نزعة الثورة على السلطان. "وقد وثق الكرمانى بعبدان فأفضى إليه بسر حركته... التي يرأسها في ذلك العصر أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح ومركزها (سلمية) بالشام بعد أن كان (الأهواز)". (الثائر الأحمر، 116).

وقد كانت (المرأة) من أدوات الإقناع التي تقدمها شخصية فقيه العدل الشامل، حيث يقدم إلى عبدان سيدة تدعى (شهر) مدعيان أنها أخته، ولما طلبها للزواج من أخيها (?) الكرمانى:

- قال الكرمانى: فهي بين يديك"

- أريد أن أتزوجها...

- فقال الكرمانى: فهل منعته عنك يا عبدان؟... أليست بين يديك تراها

كل يوم وتراك؟... إن كان ذلك لا يكفيك فخذ منها ما يكفيك!. ما

يدعوك إلى الزواج وهي مُيسرة لك (الثائر الأحمر، 107، 108)

وعندما أنكر عليه عبدان ذلك مستندا إلى الدين والعرف والخوف من الله، أجابه الكرمانى بقوله: "ولكني ظننتك حراً تنشد إصلاح أحوال الناس وتبغى سعادتهم، ولا تخضع إلا لحكم العقل، فإذا أنت كسائر الناس ترسف في أغلال العقائد الموروثة وقيودها... - متى صلحت أحوال الناس بالدين يا عبدان؟ لقد وُجد الدين من قديم، وما برح الفقير يموت من الجوع، والغني

يموت من البطنة، والقوي يسطو على الضعيف، والسلطان يجور على الرعية، والرعية تخضع لهذا الجور". (الثائر الأحمر، 109)

- ويضيف الكرمانى متحدثا عن علماء الدين: "فهل كانوا إلا أعوانا للظلم، يتأولون نصوص الدين بما يرضي السلطان لكيلا ينالهم أذاه، وبما يرضي ذوي الجاه والمال لينالوا نصيبا من جاههم ومالهم، ويوصون الفقراء ومهضومي الحقوق بالصبر على ما يلقون والقناعة بما يجدون والرضا بقضاء الله وقدره لئلا يثوروا على ظالمهم...". (الثائر الأحمر، 109، 110)

ويقتنع عبدان بهذه الحوارات، وكأننا في سياق نوعي معاصر تجري حواراته ومجادلاته في أروقة شيوعي روسيا، أو فرنسا... ولعل البعد الثقافي الذي يرمي إليه باكثر بهذا الحوار الفكري الفريد يتجه اتجاهها سطحيا نحو النصح المباشر للقارئ الحقيقي للعمل الأدبي، بل يُعد تحذيرا من مغبة المبالغة في قناعات إيديولوجية تذهب بالقارئ عن ثوابت الدين الحنيف في دعوته إلى العدل دون تفريط في عرض أو إفراط في بذل النفس مقابل لا شيء.

وهذا ما يطلق عليه (المعادل الموضوعي) الذي أشرنا إليه في مقدمة الدراسة. فسيكون (عبدان) مُفتيا لهذا المذهب الإباحي الذي يدعو إلى ما أطلق عليه باكثر (العدل الشامل)، بل سيقنع فيما بعد أن تصبح (شهر) هذه مشاعا بينه وبين حمدان، لكي تقنعه هو الآخر بالمذهب الذي يشيع وينشر هذا العدل المطلق (التحرر المطلق). فعندما يعود عبدان إلى حيث يقيم حمدان، يحاول أن يقنعه بوجود شخصية (الإمام المعصوم) الذي يدعو إلى العدل الشامل.

لننظر إلى ما يطلقه باكثر من فكرة حول الشخصية المجهولة في الرواية المتمثلة في شخصية هذا الإمام المعصوم الذي تحل فيه صفات الإله. فعندما يعلق (الشيخ؟ حسين الأهوازي) على ما أصبح عليه (عبدان) في مدينة (سلمية) محل الدعوة، يقول لراجية: "ما حاجته إلى الزواج وقد أبيع له ما شاء من النساء يستمتع بمن كما يريد...إنه من المخلصين للمذهب، وقد رُفِع عنه التكليف، فله أن يفعل ما يشاء". (الثائر الأحمر، 144). ثم يتوجه إلى راجية بالقول: "لا تكتئي، ما أراك إلا قد آمنت بمذهب الإمام، فلك أن تفعلي ما تشائين مثله". (الثائر الأحمر، 145). ومن ثم مهد هذا المخاتل طريق التحرر وعبده حريراً أمام (راجية) لتصبح فيما بعد مع شهر من بين المروجين للمذهب مؤيدتين لهذه الحرية المطلقة التي لا كايح لها.

وعندما يكشف (حسين الأهوازي) عن سره للبطل (حمدان) وعن سر اتصاله بعبدان في (سلمية)، ودعوة فريقهم إلى العدل والقضاء على سلطة رأس المال والثورة على الحكام لإسقاطهم، وإطلاعه على فكرة اسمها (الإمام المعصوم) الذي يهب ويمنع، يعلق باكثر مسقطاً رأيه الذاتي في قوله:

"لم يؤمن حمدان بالإمام المعصوم الذي يدعو إليه الأهوازي، ولم يكلف نفسه عناء التثبت في أمره ليتحقق وجوده أو عدم وجوده. وإنما آمن بالهدف الذي ترمي إليه هذه الدعوة الجديدة إذ كان هو هدفه من قبل". ((الثائر الأحمر، 147)

ويتطور الأمر، لتنشط الفكرة الإباحية (العدل المطلق) في هذه الزمن البعيد، حيث مازال الشيخ الأهوازي يخفي على حمدان بعض ما ترمي إليه دعوته في صميمها وغايتها من تشييك الناس في دينهم" (الثائر الأحمر، 151).

وعندما يعود حمدان ليحتل محل (الشيخ حسين الأهوازي؟!) الذي غادر، يجد أن الشيخ قد خلف وراءه (راجية) أخت حمدان، وهي حامل سفاحا (من وجهة نظر الحد الديني)، وبركة مباحة من وجهة نظر الداعين إلى هذا النوع من الحرية، فيدخل في حوار وحيل ليقنع أحاما بقبول هذه الفضيحة على أنها من باب الحريات، فيرسل إليه (شهر) -كما فعل الكرمانبي من قبل- تقضي ليلة معه، وهي مشاع (لاحظ الاشتقاق من كلمة شيوع وشيوعي)، ثم يعود إلى حمدان في حوار جدي، لا يقتنع به الأخير...ولكنه يقبله من أجل (شهر):

-تنكر (شهر) على (راجية) خوفها من حملها من الشيخ الأهوازي، قائلة: عجباً كيف خالطك داعي الدعاة الأهوازي جسدا ولم يخالطك روحا؟ أعجزت براعته عن تنوير عقلك وإطلاقه من إيسار العادة والوهم. (الثائر الأحمر، 162) وفي الاتجاه نفسه يقول له حمدان ليحعله يقبل بما وقعت فيه أخته مع الأهوازي، وبعد أن أطلق عليه (شهر): "فإياك أن تتحرج بما يبئحه لك المذهب. كن حر العقل يا حمدان ولا تكن أسير العادة والوهم، واذكر دائما أنك قائد الدعوة". (الثائر الأحمر، 170)

وعندما يخبره حمدان بما وقعت فيه راجية من مزلق، يثور حمدان، ولكن حمدان يقول له: "لا فرق بينك حالك وحالها إلا أن فعل العادة والوهم في حالها أشد وأقوى...". يرد عليه حمدان قائلاً:

- أفهذا ركن من أركان المذهب لا يتم المذهب بدونه؟
 - نعم، إنك لتعلم أن أساس مذهبنا العدل الشامل، وليس من العدل ألا تبيح لأختك ما استبحت لنفسك...وما شهر إلا أختك في المذهب وقد ارتضت أن تصاحبك فليس عليك فيها حرج، وما كان همي إلا أن أصحح لك العقيدة...". (الثائر الأحمر، 171)

فهل قاوم حمدان فكرة عبدان حول العدل الشامل أم قبل بها؟

4-3-4. شخصيات يقاومها البطل:

المقاومة هنا مقاومة الفكرة التي تحملها بعض الشخصيات، ومن الطبيعي أن نفحص الرواية فحصا دقيقا لنستجلي تفسيرها واضحا لرؤية الأديب للعالم من حوله، يكون البطل فيها محورا لتطور السرد القصصي في العمل المقصود.

- مقاومة فكرة الظلم:

وتتمثل في الوقوف في وجه من يقوم على صناعة الظلم في المجتمع، وأهم تلك الشخصيات، شخصية (ابن الحطيم) الذي يملك الأرض ورقاب من يعمل فيها، دون حق أو عدل. ولا يكتفي بذلك بل يعتدي على حرمت الناس، فيخطف (عالية) أخت (حمدان)، ويقتل من يحاول الوقوف عقبه في تحقيق مآربه. وكذلك شخصية السيد الآخر (ابن الهيصم) الذي لا يني يفعل مثل الأول، ويسابقه في صناعة الظلم.

وتستغرق هاتان الشخصيتين (السفر الأول) إلى أن يهرب (عبدان) في لباس طالب العلم. ويعد ذلك باعثا إلى تفسير القاعدة التي انطلق منها باكثير

إلى لجوء أبطاله إلى الإيديولوجيات التي تدعو إلى العدل (أي عدل؟)، وتتعلق به بأي ثمن! إن أحداث الظلم والخطف والتعدي وقطع الطرق ومحو إنسانية الآدمي هي التي دفعت بطلنا متعجلا إلى التعلق بأذيال ما يدعى (العدل الشامل)، ولكن هل اقتنع نفسه بذلك؟

وفكرة باكثير الأساسية تنمو بنمو فكر الشخصية الأساسية في النص (حمدان)، وقد أدرك عبدان أول لقاءه بأهل الباطنية من أعوان (الكرماني) أن الموفق أخا الخليفة "لا يستطيع أن يوافق على [إنصاف المظلومين من الأغنياء] وهو محتاج إلى الأموال للقضاء بها على الفتن، ثم لا تنس أن الأغنياء ذوو نفوذ ولا بد من مصانعتهم". (الثائر الأحمر، 99)

وكذلك تنمو شخصية البطل في التعبير عن حس المقاومة لفكرة الظلم وأدواته الفكرية، وحين تسنح الفكرة ويصبح (حمدان) عيارا، يخطف أخت ابن الحطيم، ويذهب بها إلى البصرة في نفر من أصحابه ليهدوها إلى طاغيتها صاحب الزنج.

4-3-5. التحالف مع الظلم.

يلفت باكثير إلى إيديولوجية هؤلاء الداعين إلى العدل الشامل الذين يبحثون عنه بطرق مختلفة حتى لو انتهكت حدود الدين الحنيف، فغايتهم الأولى هي مقاومة فكرة اتحاد الدين مع أمور الدولة مهما كلف ذلك من ثمن مادي أو أخلاقي، حتى لو علموا يقينا أن هناك نافذة للعدل على جناح هذه الإيديولوجيا الدينية. وتعلن الرواية عن ذلك من خلال فكرة البطل (حمدان)

بعد أن أصبح كبير قومه يرعى مذهب العدل الشامل...ورغم قناعاته الشديدة بفساد هذا المذهب... فإنه يجد حجته في أنه ينشد العدل فقط، ورغم قناعته بأن الزنج قد ثاروا ثورة باطلة ظلموا بها الناس، فإنه يجد مبررا للذهاب إلى قائد الزنج للتحالف معه ضد الدولة من ناحية، ومن ناحية أخرى ضد زحف المذهب الديني المعتدل الذي تعبر عنه شخصية (أبي البقاء البغدادي):

- حمدان: نحن ندعوك للدخول في مذهب الإمام.

- صاحب الزنج: لا يوجد إمام غيري.

- حمدان: إنما الإمام الحق (محمد بن إسماعيل).

- صاحب الزنج: ذلك إمام القداحين يدعون باسمه لأنفسهم، ولا وجود له بينهم. أفتدعونني إلى مذهب ذلك اليهودي الدجال من بني الشلعلع عبد الله ميمون القداح؟

- إني لا أدعوك إلى مذهب أحد. وإنما أدعوك إلى المذهب الحق، مذهب العدل الشامل بين الناس.

- هذا ويلك مذهبي...

- إنك ما عدوت أن جمعت المظلومين من العبيد والرعاغ فملكتم رقاب الأحرار، يغتصبون أملاكهم، ويستحيون نساءهم، ويسومونهم سوء العذاب. (الثائر الأحمر، 183)

وكذلك يجد مبررا لرشوة والي الكوفة (أحمد بن محمد الطائي) لكي لا

يحاول الهجوم على فرقتة. (الثائر الأحمر، 153)

4-3-6. حمدان بين فقيهين: عبدان وأبي البقاء.

لقد أودع العباسيون الفقيه (أبا البقاء البغدادي) السجن خشية تأثيره في الناس، وجعلهم يطالبون بحقهم في الحرية والتحرر من رقة الظلم، بمطالبته الخليفة بالبحث عن حقوق الفقراء لدى الأغنياء. وعندما يستفحل أمر أنصار الكرمانى يُخرج (الموفق) (الثائر الأحمر، 122 و 192) أبا البقاء من سجنه ليقاوم بفكره فكر هؤلاء. وبالطبع فإن مفتي (العدل الشامل) الذي لا يرمى ديناً ولا ذمة هو عبدان. وقد قنع بأن أصحاب الدين المعتدل أو الذين يجعلون الشريعة مرجعاً لهم أشد خطراً على بقائهم وعلى بقاء ما أطلق عليهم الكرمانى (الأحرار) (الثائر الأحمر، 110). بينما صاحب الفكر المستنير الذي يقوم على مرجعية الدين الحنيف هو (أبو البقاء). وقد يرمى باكثر إلى حقيقة قائمة بالفعل بين أصحاب الفكر الاشتراكي (المتحرر منه بخاصة) وأصحاب الفكر الديني المعتدل. وقد كان بل ظل بينهما من التعارض محل نقاشات وجدل مستميت إلى الآن، في الرفض المطلق لكل منهما للآخر.

ولكن أين (حمدان) من الفكرتين -بوصفه بطل الرواية- ؟ على الرغم من قرب عبدان من حمدان، وبالرغم من كونهما أبناء عمومة، فإن حمدان لم يقتنع يوماً بفكرة التمرد على الدين الإسلامى، وإن بدر منه تصرفات تجعله منتمياً إلى هذا الفكر الباطنى الذي يؤمن بالتقية لمصلحته. ومن هذه التصرفات: يوم (المشهد الأعظم)، حيث يهيم الرجال مع النساء على وجوههم، ويحل لهم

ما حرم الله في الظلام، فيقع حمدان على ابنته (فاخته) التي اعتنقت المذهب، ويقع ابنه (الغيث) على عمته (راجية) (الثائر الأحمر، 256)، وتستسيغ ذلك... ولكن البطل حاول أن يلغي هذا اليوم، ولكنه تركه خشية انقلاب الناس عليه. وقد كان عبدان مؤازرا لإحياء هذا اليوم. وفي المقابل يقتنع حمدان في نهاية الرواية، بعد تأمر المشهد الأعظم عليه لقتله لعدم إيمانه بتقبل فكرة شيوع (؟) هذه الأفكار التي تشيع الأرض والعرض دون تخرج من عيب أو حياء مبعثه الدين... يبدأ حمدان في إفهام الناس عيب مذهبه وضلاله، وينصحهم باللجوء إلى جيش الخليفة، والهرب من برائن الأعيب هؤلاء الذين يبيحون كل شيء بحجة العدل والفكر العقلي.

وقد قدم باكثير لعمله الأدبي بأن جعل من بطلها شخصية معتدلة، تقوم على الفطرة السليمة في الحكم على الأشياء، وبخاصة المعطيات الفكرية التي تنمو بنمو الرواية، ولذلك عندما يقترب من نقطة الاختبار الحقيقية للشخصية السوية، نجد السارد يقول عن حمدان: "وكان حمدان شديد الإعجاب بهذا الفقيه النادر [أبي البقاء] المثال الذي امتاز على أنداده من العلماء والفقهاء بشجاعته وغيرته على الحق، وانتصاره للمظلومين، ووقوفه وحده منددا بطغيان المال، وجور السلطان، لا يصرفه عن ذلك وعيد ولا تهديد. فكان كثيرا ما يسائل نفسه إذا كان في الدين الواضح المعالم هذه القوة الصالحة المصلحة، وفي علمائه مثل أبي البقاء، فعلام يعدل عنه إلى ذلك المذهب الشاذ الذي طراً عليهم من الأهواز باسم إمام لا يعرف حقيقته أحد أتباعه". (الثائر الأحمر، 193)

وق تبين صدق حدس حمدان، بعدما طلبا مقابلة الإمام المعصوم في (سلمية)، فيرسل إليه (عبدان) لمقابلته، وإذا بعبدان يجد أن الحسين القداح هو ذلك الإمام المدعي نفسه، وليس نائبه. ويعترف حسين هذا بأن جده (عبد الله بن ميمون القداح) كان هو الإمام نفسه، وكان يدعي أنه نائب الإمام تقية منه، ويضيف الحسين إلى عبدان أن أباه لم يكشف عن نفسه "إلا لصفوة أصحابه، وقد ظننتك من الصفوة فكشفت لك أمري، فإذا أنت من الدهماء ما تزال مفتونا بالنسب العلوي". (الثائر الأحمر، 295)

وبذلك تصبح الفكرة وهي قائمة على وهم، فلا سبيل إلى إقامة عدل شامل بطرق غير عادلة تبيح الدم والعرض. بل السبيل هو إعمال العقل بغية تحقيق العدل الذي يحفظ للناس أعراضهم أنسابهم، وشرفهم، وحياءهم. وقد كانت تلك إشارات علي أحمد باكثير التي يمكن قراءتها بوضوح في خاتمة الرواية.

مناقشات حول دراسة الشخصية في الرواية

1. حدد الإطار النظري لدراسة الشخصية في الرواية مع التطبيق.
2. وضح -بأسلوب علمي- كيف قدم (علي أحمد باكثير) شخصية البطل في روايته (الثائر الأحمر).
3. ناقش إلى أي حد رسم (علي أحمد باكثير) صورة بطل عمله (الثائر الأحمر).
4. وضح -من خلال دراسة شخصية البطل- إلى أي حد استطاع باكثير تقديم المعادل الموضوعي في روايته.